

عن الشواطئ المصرية، مقابل أن يعيد إليهم الكامل مدينة بيت المقدس، ومعظم البلاد التي أخذها منها صلاح الدين؟ أي مملكة بيت المقدس الصليبية كلها إلا قليلا. غير أن الصليبيين لم يرضوا بهذا العرض السخي، لعدة أسباب اقتصادية عسكرية دينية، وأصرّوا على رفضه رغم تكراره من جانب الكامل الذي خشى أن تنصرف قوته إلى الصليبيين، فيقتصر أقراره من أبناء صلاح الدين الفرصة لهدم سلطنته في مصر.

وفى أثناء هذه المفاوضات جاء إلى المعسكر الصليبي رجل يناهز الخامسة والعشرين من العمر، بالى الثياب، خالى الوفاض، بادي الأنفاس، لا يملك بلغة، ولا يجد في جرابه مضغة، وليس في مظهره إلا ما يثير سخرية الجاهل. كان هذا الرجل هو. كان هذا الرجل هو القديس فرنسيس، وهو إيطالي من بلدة أسيسى بأقليم أمبريا بأواسط إيطاليا، حيث كان أبوه تاجراً من مياسيرتجار الأقمشة. ونشأ فرنسيس فتى عارماً معطاء مما يصدق عليه أبوه من مال، عاشقاً للفروسية وحياة الجندية وما فيهما من مرح وصخب واستهتار، ثم طرأ على حياته ما غيرّه تغييراً كلياً، إذ اشترك ذات يوم في معركة بين بلدته أسيسى وبلدة بيروجيا المجاورة، فوقع أسيراً في أيدي البيروجيين، وبقي في أسره مدة مرض في أثناءها مرضاً برّح به، وأراه الحياة على حقيقتها الغرارة، كما كشف له عن صفات العبقرية في نفسه، وهى الصفات التي وضحت نزواتها في فتوّته، ثم وصحت في رجولته في صورٍ أخرى، من حب خالص، وبساطة متناهية، مع سرعة الاستجابة للام الغير، وألفى فرنسيس أن العالم الإيطالي المسيحي بحاجة إلى التطهر والتوبة، بعد أن شهد الكنيسة البابوية – وهى رأس العالم الأوربي المسيحي كله – تجرى وراء مشاريع دنيوية ضخمة، فانطلق على وجهه في إيطاليا عارى القدمين يدعون إلى بساطة المسيحية الأولى، واتخذ الفقر والطاعة والطهر شعائر معدودة، وألف من أتباعه ومريديه جماعة الإخوان الفرنسيسكانيين، وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء، أو الفقراء الرماديين إشارة إلى لون طيالسهم، أو الفقراء من غير صفة ما.